

الدرس السابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث السابع عشر

عن أبي يعلى شداد بن أوس الداري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله كتب الإحسان
على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليجد أحدكم شفرته
وليُرح ذبيحته " رواه مسلم
الشرح..

قوله عليه الصلاة والسلام في صدر هذا الحديث " إن الله كتب الإحسان على كل شيء " :
هذا أصل جامع وقاعدة من قواعد هذا الدين الدالة على عظمته وجماله وحسنه ؛ فالله عز
وجل مما كتبه على عباده وأمرهم به وشرعهم له الإحسان ؛ فالله جل وعلا كتب الإحسان
على كل شيء .

الكتابة هنا المراد بها الكتابة الشرعية ، فمعنى كتب أي شرع وأذن لعباده ديناً وشرعاً . أمرهم
بالإحسان على كل شيء ؛ أي أن الأمر بالإحسان في كل شيء وفي كل المجالات و
الأبواب . فالكتابة هنا كتابة شرعية ؛ منها قول الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين ءامنوا كتب عليكم
الصيام ﴾ ، وقوله ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ، ونحوها من الآيات ؛ لأن الكتابة في النصوص تارة
يُراد به الكتابة الكونية القدرية مثل قوله جل وعلا ﴿ إن ذلك في كتاب ﴾ وقوله ﴿ كتب الله
لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ، وتارة يراد الكتابة الشرعية الدينية كما في هذا الحديث ؛ فمعنى قوله إن
الله كتب الإحسان أي كتابة شرعية ؛ بمعنى أنه شرعه لعباده ، وأمر عباده به .
والإحسان أمرٌ مطلوب من المسلم في كل باب وفي كل مجال ؛ ولهذا قال " الإحسان على
كل شيء " .

فيجب على المسلم أن يكون متصفاً بالإحسان :

الإحسان في فعل الواجبات والقيام بالطاعات كما أمره الله سبحانه وتعالى بها .

والإحسان بالبعد عن النواهي والمحرمات .

والإحسان بالصبر على أقدار الله تعالى .

والإحسان إلى عباد الله بحسن التعامل وطيب المعاشرة ، بل الإحسان إلى بهيمة الأنعام كما مثل النبي ﷺ للإحسان بذلك ؛ لأنه ذكر في مقدمة الحديث قاعدة في الباب وهو أن الله كتب الإحسان على كل شيء .. ثم مثل عليه الصلاة والسلام بنوع من أنواع الإحسان الذي هو مطلوب من المسلم ؛ ولهذا قال " وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته " ؛ هذا مثال للقاعدة الكلية ، فالقاعدة الكلية الجامعة في هذا الباب " أن الله أمر بالإحسان على كل شيء " وأن الإحسان مطلوب من المسلم في كل باب ومجال يحب الله جل وعلا الإحسان وهو تعالى مع المحسنين ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وقد مر في حديث جبريل أن رتبة الإحسان أعلى الرتب في الدين ؛ قال عليه الصلاة والسلام عن الإحسان " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ، وقال أيضاً " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " ؛ وهذا فيه أن الإحسان مطلوب منك في إسلامك وفي إيمانك وفي عبادتك لله وفي تعاملك مع الناس وفي الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة ؛ مطلوب منك في كل باب .

وذكر النبي ﷺ مثالا من أمثلة الإحسان المطلوبة وهو الإحسان إلى بهيمة الأنعام فقال " فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة " : القتلة والذبحة المراد بهما الهيئة - هيئة الذبح وهيئة القتل - ، والفرق بين القتل والذبح أن الذبح فيما يؤكل لحمه ، والقتل فيما سوى ذلك مما يُراد التخلص منه مثل لو أراد الإنسان الخلاص من ثعبان أو عقرب أو كلب مؤذ أو غير ذلك بالقتل مما يُباح قتله مثل قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث : " خمسٌ يُقتلن في الحل والحرم " ؛ فلا يقتلها إلا قتلة مريجة .

ولاحظ قوله عليه الصلاة والسلام " فأحسنوا " في الذبح والقتل ؛ فلم يحدد النبي ﷺ نوعا من الاحسان بل أطلق ؛ فالإطلاق هنا يفيد العموم ؛ فمعنى ذلك افعل من الإحسان ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . فمثلاً لو أردت أن تقتل ثعباناً ، وأمامك عدة خيارات في طريقة

قتله ؛ فالحديث يعطيك قاعدة في الباب بأن تختار الأرفق والأحسن - إذا قتلتم فأحسنوا القتلة - .

كذلك في الذبح يحسن في الذبح ويجتهد في إراحة الذبيحة بدءاً من رحمة في قلبه تجاه هذا الذي يذبحه ثم بما تقتضيه هذه الرحمة من لطف ورق وإحسان . جاء في الأدب المفرد أن أحد الصحابة رضي الله عنهم قال للنبي عليه الصلاة والسلام يا رسول الله الشاة أذبحها وأرحمها قال عليه الصلاة والسلام " والشاة إذا رحمها رحمك الله " ؛ ولهذا أول ما يكون في الإحسان الرحمة ؛ رحمة تكون بقلب هذا الإنسان تجاه هذه البهيمة التي سخرها الله لك وأنعم عليك بها وجعلها لك طعاماً ورزقاً ، وسخر لك ذبحها ويسر لك أن تأكل منها وتطعم .. فهذه نعمة . فمطلوب من العبد أن يرحم - ومن لا يرحم لا يُرحم - ، ويذبحها وهو يرحمها ؛ فلا تفارقك الرحمة مع الذبح مثلما ما قال هذا الصحابي " أذبحها وأرحمها " ؛ ولهذا الرحيم إذا ذبح تختلف صفة ذبحه عن الغليظ ؛ فالغليظ يباشر الذبح بشدة وغلظة بينما الرحيم تجده رفيقاً بالبهيمة يتلطف بها ويطبق هذه السنن .

" وليحد أحدكم شفرته " : يحد السكينة والآلة التي سيدبح بها بمبرد أو بحجر حتى تكون حادة تقطع بسرعة وتنتهي الدم بسرعة ولا تتأذى منها البهيمة وقت الذبح . وأيضاً جاء النهي من أن يحد شفرته أمام الشاة بل يحد شفرته بعيداً عن نظرها ، ويضعها على الأرض - يضجعها برفق ويمر السكين بسرعة ويريح الذبيحة ؛ " وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته " .

وهذا مثال في الإحسان وإلا صدر الحديث فيه قاعدة كلية في الباب وهي الإحسان على كل شيء كتبه الله .

كذلك في قتال القصاص وإقامة الحدود - التعزيرات - ؛ فعندما يُقتل أيضاً يُحسن في قتله ؛ ولهذا جاء القتل بالسيف لأن السيف يريح المقتول - في لحظة يفارق رأسه جسده - وهي أريح قتله ، لكن إذا كان القاتل الذي قُتل قصاصاً كان قتله فيه تمثيل بالمقتول ؛ فالجزاء يكون وفاقاً ؛ مثل اليهودي الذي رضح رأس المرأة بين حجرين ، أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يُقتل بهذه الصفة جزاءً وفاقاً ، ومثل الذين سمنوا عين الراعي وقتلوه وساقوا الإبل ؛ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يمثل بهم نضير ما صنعوا في قصة العرانيين ؛ فأمر عليه الصلاة والسلام بذلك جزاءً وفاقاً ، والعقوبة من جنس العمل الذي قاموا به لكن يبقى الأصل وهو الإحسان .

ومر أيضاً قريباً رجم الزاني حتى الموت ؛ وهذا كما قال أهل العلم من الإحسان ؛ لأن الإحسان هو موافقة الشرع ، والشرع أمر بذلك ، والزاني المحصن لما كان تلذذه بهذا الذي حرمه الله عليه شاملاً لبدنه كله ، وبدنه كله ذاق من هذه اللذة المحرمة ؛ كان قتله بهذه العقوبة .

وهذا نوع من الإحسان لأن الله سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بالعدل والإحسان ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ ؛ فهو جل وعلا محسن ومن أسمائه المحسن يحب الإحسان وكتب الإحسان على كل شيء . فاسمه جل وعلا المحسن وصفته جل وعلا الإحسان وشرعه كله حسن وجمال ، وكل ما يأمر به جل وعلا ماضٍ على وفق الإحسان ومقتضاه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ .

قال الشيخ عبد المحسن العباد البدر :

[الأول : قوله صلى الله عليه وسلم " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ " :

الإحسان ضد الإساءة . كتب : بمعنى شرع وأوجب ، فالكتابة دينية شرعية ، والإحسان فيها يكون عاماً للإنسان والحيوان] .

الشرح..

قوله في صدر الحديث : كتب أي شرع وأمر وأوصى بذلك فالكتابة هنا شرعية دينية كما قدمت الكتابة تأتي في النصوص ويراد بها الكونية القدرية ويأتي بها يراد بها الشرعية الدينية والذي كتبه الله كوناً وقدرًا لا بد أن يقع والذي كتبه شرعاً وديناً قد يقع وقد لا يقع ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ ﴾ من الناس من يصوم ومنهم من لا يقوم بهذه الطاعة ولا يفعلها كتب على الناس أن يحسنوا ؛ فمنهم من يحسن ومنهم من يسيء .. هذي كتابة شرعية ؛ لك الذي كتبه الله كوناً وقدرًا لا بد أن يقع مثلما ما جاء في الحديث " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ " هذي كونية قدرية ، وفي الحديث الآخر أول ما خلق القلم قال له اكتب قال وما أكتب ؟ قال " اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة " .

والذي كتبه الله شرعاً وديناً قد يقع وقد لا يقع ؛ كتب عليكم الصيام : فمن الناس من يصوم ومنهم من لا يقوم بهذه الطاعة ولا يفعلها . كتب على الناس أن يحسنوا ؛ فمنهم من يحسن ومنهم من يسيء . .

[الثاني : ثم أمر الرسول ﷺ بإحسان القتلة والذبح وإحداذ الشفرة وإراحة الذبيحة ، وهذا مثال من أمثلة إيقاع الإحسان عند قتل الإنسان المستحق للقتل وذبح الحيوان ، وذلك بسلك أسهل الطرق التي يكون بها إزهاق النفس من غير تعذيب] .

الشرح:

قوله " فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليُحد أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته " : هذا مثال من الأمثلة المطلوبة في عموم قوله " إن الله كتب الإحسان على كل شيء " ؛ يعني من أمثلة ذلك الإحسان في القتل والإحسان في الذبح ، وهذا على سبيل التمثيل . وإلا الأمر كما في صدر الحديث الإحسان مطلوب في كل شيء وفي كل باب . والإحسان في الذبح أو الإحسان في القتل يكون بإراحة المقتول أو المذبوح وذلك بإزهاق روحه بأقرب طريق وأيسر سبيل دون تعريض له للعذاب .

[الثالث : قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم :

وهذا الحديث يدل على وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال لكن إحسان كل شيء بحسبه ؛ فالإحسان في الإتيان بالواجبات الظاهرة والباطنة : الإتيان بها على وجه كمال واجباتها فهذا القدر من الإحسان فيها واجب ، وأما الإحسان فيها بإكمال مستحباتها فليس بواجب ، والإحسان في ترك المحرمات الانتهاء عنها وترك ظاهرها وباطنها كما قال تعالى { وذروا ظاهر الإثم وباطنه } ؛ فهذا القدر من الإحسان فيها واجب ، وأما الإحسان في الصبر على المقدورات بأن يأتي بالصبر عليها على وجهه من غير تسخط ولا جزع ، والإحسان الواجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم القيام بما أوجب الله من حقوق ذلك كله ، والإحسان الواجب في ولاية الخلق وسياستهم القيام بواجبات الولاية كلها ، والقدر الزائد

على الواجب في ذلك كله إحسان ليس بواجب ، والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها وأوحاها. يعني أسرعها. من غير زيادة في التعذيب فإنه إيلاام لا حاجة إليه ، وهذا النوع هو الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ، ولعله ذكره سبيل المثال أو لحاجته إلى بيانه في تلك الحال فقال " إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة " ، والقتلة والذبحة بالكسر أي الهيئة و المعنى أحسنوا هيئة الذبح وهيئة القتل وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يُباح إزهاقها على أسهل الوجوه [

الشرح..

كلام الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى كلام عظيم في شرح قول النبي عليه الصلاة والسلام "إن الله كتب الإحسان على كل شيء" ، وبيّن رحمه الله تعالى أن هذه الجملة تدل على وجوب الإحسان ، والمراد بوجوبه أي القدر الواجب من الإحسان شرعاً - لأن من الإحسان ما هو مستحب ومنه ما هو واجب - ؛ فالإحسان المستحب يثاب عليه فاعله ولا يعاقب تاركه ، لكن الإحسان الواجب مفروض على الجميع ، ومن ترك الإحسان الواجب أثم وعُوقِبَ على تركه ؛ ولهذا فصل رحمه الله تعالى في هذا الباب وبيّن أن الإحسان في كل شيء بحسبه ؛ فذكر أولاً الإحسان في الواجبات الظاهرة والباطنة أي الأمور التي طلب الله سبحانه وتعالى من عباده فعلها على سبيل الوجوب ؛ قال : " الإتيان بها على وجه كمال واجباتها " بحيث يأتي بالواجب كما أمر - هذا الإحسان في المأمور من واجبات الدين وفرائض الإسلام - ، ما زاد على هذا القدر من الرغائب والمستحبات فإنه إحسان ولكنه إحسان مستحب وليس إحسان واجب بمعنى أن من فعله أثيب ومن لم يفعله لم يعاقب .

ثم ذكر الإحسان في ترك المحرمات ؛ قال : " وهو الانتهاء عنها وترك ظاهرها وباطنها كما قال جل وعلا {وذروا ظاهر الإثم وباطنه} " ؛ فهذا أمر واجب ؛ تجنب كل المحرمات وجميع الأمور التي نهى الله سبحانه وتعالى عباده عنها وحرّم عليهم فعلها .

وذكر الإحسان في الصبر على المقدورات إذا أصيب المرء بمصيبة في مال أو في نفس أو في ولد أو غير ذلك ؛ فعليه أن يحسن ، وإحسانه هو صبره على المصاب واحتساب ذلك عند الله جل وعلا ، وتفويض الأمر إليه سبحانه ؛ ولهذا لما ذكر الله جل وعلا أنواع المصائب في

سورة البقرة قال {وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون} فصبر الإنسان واسترجاعه وتفويضه الأمر إلى الله عندما يصاب إحسان مطلوب من العبد في باب الأمور المقدرة عليه المؤلمة له .

كذلك البعد عن الجزع والتسخط وشق الجيوب ولطم الخدود وغير ذلك من أعمال الجاهلية ؛ هذا كله من الإحسان عند المصيبة وفعل شيء من ذلك خلاف الإحسان .

فإذا الإحسان مطلوب من العبد عندما يصاب بمصيبة مطلوب منه أن يحسن ، وإحسانه يكون بصره وعدم جزعه وتسخطه، ويكون بتفويضه الأمر إلى الله وطلب الأجر والثواب منه سبحانه وتعالى، وأن يعوضه ويخلفه خيراً - اللهم أجربي في مصيبي واخلفني خيراً منها - هذا كله إحسان في هذا الباب .

وذكر الإحسان في المعاملة ، معاملة المخلوقين ومعاملة الناس ، وأن منه قدراً واجباً ومنه قدراً مستحباً ، قال " والإحسان الواجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم القيام بما أوجب الله من حقوق ذلك كله " ؛ هذا قدر واجب ، أما ما زاد على هذا القدر الواجب فهو مستحب يثاب إن فعله ولا يعاقب على تركه .

قال " والإحسان الواجب في ولاية الخلق وسياستهم ممن ولاه الله الأمر ، هو القيام بواجبات الولاية كلها، والقدر الزائد على الواجب ذلك كله إحسان ليس بواجب " : بمعنى أن من فعله أثيب ومن لم يفعله لم يعاقب .

ثم ختم ذلك بقوله : " والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها " بأن يكون القتل سريعاً مريحاً ليس فيه تعذيب ، وأشار أن ذكر النبي عليه الصلاة والسلام لذلك لعله على سبيل المثال أو لكون الحاجة داعية ومقتضية إلى التنبيه على ذلك في هذا الباب .

[رابعاً : الإحسان في القتل مطلوب بدون تعذيب ولا تمثيل سواء كان في قتال الكفار أو القتل قصاصاً أو حداً إلا أنه عند القتل قصاصاً يُفعل بالقاتل كما فعل بالمقتول كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل اليهودي الذي رضَّ رأس جارية بين حجرين " رواه البخاري ومسلم ، وكما في " قصة العرانيين " رواه البخاري ومسلم ، وأما ما جاء في حد الزاني المحصن وهو الرجم

فهو إما مستثنى من عموم هذا الحديث أو محمول على أن الإحسان يكون في موافقة الشرع ورجم المحصن منه] .

الشرح..

مما يدل عليه هذا الحديث في هذا المثال الذي ذكره عليه الصلاة والسلام أن الإحسان في القتل أمرٌ مطلوب بحيث من أذن له شرعاً في قتله قتلاً لا تعذيب فيه لعموم قوله " وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة " ، فالأصل أن من أذن في قتله شرعاً يقتل قتلاً مريحاً لا تعذيب معه ، لكن إذا كان القاتل الذي أريد قتله قصاصاً حصل منه تمثيل في القتل وحصل منه تنكيل ؛ فإنه يجازى بالمثل مثل قصة اليهودي .

وأما ما يتعلق برجم الزاني فذكر أهل العلم حكمة في ذلك وهي أن بدنه الذي حصل منه تلذذ بالحرام استحق أن يُقتل على هذه الصفة ليدوق جميع البدن العذاب جزاءً له على هذه اللذة المحرمة التي ذاقها جميع بدنه .

[خامساً مما يستفاد من الحديث :

الأول : وجوب الإحسان في كل شيء .

الثاني : وجوب الإحسان عند القتل بسلوك أيسر سبيل لإزهاق النفس .

الثالث : وجوب الإحسان عند ذبح الحيوان كذلك .

الرابع : تفقد آلة الذبح قبل مباشرته لقوله صلى الله عليه وسلم " وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته " .

أيضاً أحب أن أشير إلى أمر يتعلق بما سبق وتكلمنا عنه في الحديث " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث وذكر منهم الثيب الزاني ومّرّ هنا أيضاً عقوبة الثيب الزاني فبعض الناس يتساءل في هذا الباب .. هل له توبة ؟

من حصل منه الزنا أو حصل منه قتل أو حصل منه سرقة أو غير ذلك ؛ هل له توبة ؟
الجواب : التوبة بابها مفتوح من جميع الذنوب ، والله سبحانه وتعالى قال في سورة الزمر { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم } ؛ فباب التوبة مفتوح ومن الذي يحول بين الإنسان وبين التوبة ، ولا يزال باب التوبة مفتوح ما لم يغرغر ؛ فإذا بدأت الروح تخرج فلا تفيده التوبة ، وما لم تطلع الشمس من مغربها

لا تفيد التوبة ، والتوبة بابٌ مفتوح ، ييسط رب العالمين يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار وييسط يدهُ بالنهار ليتوب مسيءُ الليل ، والله عز وجل من أسماء الحسنى التواب، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات جل وعلا .

والعبد إذا صدق مع الله في توبته وتاب توبةً نصوحاً صادقاً مع الله جل وعلا؛ قبل الله تعالى متابه وغفر ذنبه .

وجاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام - وهو حسن بشواهد - أن دواوين الظلم يوم القيامة ثلاثة :

ديوان لا يغفره الله ، وديوان لا يتركه الله ، وديوان لا يعبأ الله به؛ أما الديوان الذي لا يغفره الله فهو ديوان الشرك فمن مات مشركاً فهذا لا مطمع له في المغفرة والرحمة البتة {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} ؛ فمن مات على الشرك بالله فلا مطمع له في مغفرة الله ورحمته؛ بل ليس له إلا النار خالداً مخلداً فيها أبداً.

الديوان الثاني : ظلم العباد بعضهم لبعض ؛ وهذا كما في الحديث " لا يتركه الله " ؛ لأن الحقوق والمظالم تؤدي يوم القيامة ، ويؤخذ للمظلوم من ظالمه ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام " لتؤدَّن الحقوق يوم القيامة " ، وجاء في الحديث القدسي أن الله جل وعلا يوم القيامة يقول :

" أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصها منه ولا ينبغي لأحد من أهل النار ولأحد من أهل الجنة عليه مظلمة حتى أقتصها منه " ، يوم القيامة يوم القصاص - تقتص المظالم - ويؤخذ للمظلوم من ظالمه ، وليس ثمة يوم القيامة إلا الحسنات ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس من لا درهم له ولا دينار، قال المفلس الذي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وحج وصدقة ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا وسفك دم هذا فيؤخذ من حسناته فيعطون فإن فنيته حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحته عليه وطرح في النار " ؛ ولهذا قال أهل العلم : التوبة من المظالم التي تتعلق بالناس لا بد من تحللهم منها أو إعادة الحقوق إلى أهلها أو أن يطلب منه العفو والسماح ؛ لأن هذا حق للإنسان ؛ فإذا كان عدوائه أخذ مالٍ بغير حق أو اغتصاب أرضٍ أو نحو ذلك؛ لا بد من إعادة الحقوق إلى أهلها ؛ لأنه إن لم يعدها في الدنيا اقتضت منه يوم القيامة حسنات ، ويوم القيامة ليس هناك دراهم ولا دنانير ، ليس هناك إلا الحسنات والسيئات .

والديوان الثالث : ديوان لا يعبأ الله به ؛ وهي الذنوب التي دون ذلك .

وعلى كل حال باب التوبة مفتوح ومهيأ مادامت روح العبد في جسده ، وباب التوبة مفتوح سواءً من حقوق الناس أو الحقوق التي تتعلق برب العالمين سبحانه وتعالى ، يتخلص من الحقوق ويتخلص من المظالم ، وفي بحقوق الرب سبحانه وتعالى كما أمر ، ويقوم بعبادته كما شرع ، ويتعد عن المحرمات ، ويحسن حاله بينه وبين الله تبارك وتعالى . ولو كان هذا الإحسان في لحظة أخيرة من حياته وتاب إلى الله توبة نصوحاً وصلحت حاله ؛ يغفر الله ذنوبه في حياته كلها ؛ كما في جاء في حديث يُرفع " أحسن فيما بقي يغفر لك ما قد مضى فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت فيما بقي وفيما مضى " ؛ فالإنسان إذا أحسن فيما بقي من حياته ؛ غفر الله ما قد مضى ولو كان شطراً طويلاً وعمراً مديداً من حياته والعبرة بالخواتيم ، قد مرّ معنا قول النبي صلى الله عليه وسلم " وإن أحدكم يعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " .

فالواجب على العبد أن يستقبل ما بقي من عمره بالإحسان والصدق مع الله والتوبة النصوح ولا يدري هذا العبد متى يودع هذه الحياة ومتى يفارقها " إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح " .

الحديث الثامن عشر

عن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " رواه الترمذي وقال حديث حسن وفي بعض النسخ حسن صحيح

الشرح ..

هذا الحديث يرويه صحابييان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الحديث يتكون من جمل ثلاث وهو من جوامع كلم نبينا عليه الصلاة والسلام ومن جوامع الوصايا ؛ يتكون من جمل ثلاثة :

الأولى : اتق الله حيثما كنت

الثانية : أتبع السيئة الحسنة تمحها

الثالثة : خالق الناس بخلق حسن .

وقد جمع هذا الحديث بجملة الثلاث أصول المعاملة :

أولاً : المعاملة بينك وبين الناس ، وكيف تكون ، وعلى أي أساس تُبنى .

ثانياً : معاملتك لنفسك ؛ على أي أصل وأساس تُبنى .

ثالثاً : معاملتك مع الناس ؛ على أي أصل وعلى أي أساس تُبنى .

فجمع عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث أصول المعاملة - المعاملة مع الله والمعاملة مع النفس والمعاملة مع الخلق - وكل جملة من جمل هذا الحديث فيها بيان لأحد هذه الأصول الثلاثة .

الجملة الأولى : قال : " اتق الله حيث ما كنت " ؛ فالأصل الذي تُبنى عليه المعاملة مع الله هي تقوى الله جل وعلا ؛ وتقواه سبحانه وتعالى هي وصيته جل وعلا للأولين والآخرين من خلقه { ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله } ،

وهي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأئمة ، وهي وصية السلف الصالح فيما بينهم ، وهي أعظم الوصايا وأجلها ، وفي القرآن الكريم من ذكر التقوى وبيان مكانتها وعظيم ثوابها وآثارها على المتقين في الدنيا والآخرة آيات كثيرة جداً تدل على مكانة التقوى وعظيم شأنها

وتقوى الله جل وعلا هي أن تجعل بينك وبين ما تخشاه من عقاب الله وسخطه وقاية تقيك ؛ لأن الأصل في الواقي لغةً هو الشيء الذي يُتقى به ، هو الأمر الذي يستعمله الإنسان حامياً له من الشيء الذي يخشاه ؛ فالذي يخشى البرد الشديد يتقيه بالملابس الشتوية والذي يخشى حرارة الشمس يتقيها بالشمسية .. وهكذا ، والذي يخشى من سخط الله وعقابه ؛ بأي شيء يتقي ذلك ؟ هذه حقيقة التقوى ؛ أن تجعل بينك وبين ما تخشاه من سخط الله وعقابه وقاية تقيك . سأل رجلٌ أبا هريرة عن التقوى ؛ قال " هل سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال نعم ؛ قال ما صنعت ؟ قال : إما أن أتجاوزهُ أو أن أقصر دونه أو أن أميل عنه ؛ قال : هذه التقوى " .

فتقوى الله أن تجعل بينك وبين ما تخشاه من عقاب الله وسخطه وقايةً تقيك وذلك بفعل المأمور وترك المحذور ؛ ولهذا قال أهل العلم " من أحسن ما عُرِفَتْ به التقوى قولُ طريقِ بن حبيب رحمه الله تعالى - وهو من علماء التابعين - ؛ قال : " تقوى الله العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله " ؛ وهذا التعريف أثنى عليه جماعة من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن رجب في جامع العلوم والحكم والذهبي في السير في ترجمة طلق .. وآخرين من أهل العلم ، وعدُّوه من أجمع ما قيل في تعريف التقوى .

فبين رحمه الله تعالى أن حقيقة التقوى هي :

أولاً : هي الفعل للمأمور والترك للمحضور ؛ أن تفعل المأمور وتترك المحضور .
وثانياً : أن تكون على علم بالأمرين ؛ ولهذا قال : على نور - في المأمور وفي المحضور - ، والنور المراد به العلم ؛ أن تكون على علم بالأمرين ؛ بالمأمور أن تفعله وفق ما أمرت به ، وأن تكون على علم بالمحضور لتتركه وتتقيه ؛ لأن من لا يعرف المحذور كيف يتقيه ؟ وكما قيل : كيف يتقي من لا يدري ما يتقي .

فإذاً لا بد من النور وهو العلم بالمأمور ليفعل وبالمحذور ليترك ؛ ولهذا كتب جماعة من أهل العلم في الكبائر كتباً مفردة منهم الإمام الذهبي ألف كتاباً اسمه الكبائر ؛ والكتاب من أوله إلى آخره عدُّ للكبائر - الكبيرة الأولى، الثانية، الثالثة، .. إلى آخره - ، والمسلم مطلوب منه أن يعرف الكبائر ليتركها ويتعد عنها ولكي لا يكون من أهلها ؛ ولهذا كتاب الكبائر للذهبي أو غيره من كتب أهل العلم في هذا الباب ؛ يُنصح المسلم أن يقرأه في حياته ولو مرة حتى يكون منها على حذر، ويكون منها على بعد ، يتعد عنها ويحذر منها .

والأمر الثالث في التعريف : قال في المأمور رجاء ثواب الله ، وفي المحذور خيفة عذاب الله ؛ وهذا فيه أن المسلم يجب أن يعيش بين الرجاء والخوف ، يفعل ما أمر به ويحْتَنِب ما نُهي عنه رجاءً للثواب ، وخوفاً من العقاب ، والرجاء والخوف مطلوب في البابين ، في الأوامر والنواهي ؛ فمطلوب منك أن تفعل المأمور راجياً خائفاً ، ومطلوب منك أن تجتنب النواهي راجياً خائفاً ؛ راجياً ثواب الله لمن ترك ما نُهي الله عنه، وخائفاً من عذاب الله تبارك وتعالى وأن يعذبك عليه إن فعلته ؛ فهذا تعريف جامع عرف به طلق بن حبيب للتقوى قال : " تقوى الله العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله " .

ولما أوصى عليه الصلاة والسلام بالتقوى هنا قال : " اتق الله حيثما كنت " ؛ وهذا أصلٌ عظيم جامع في هذا الباب ، إتق الله حيثما كنت أي في الغيب والشهادة والسر والعلانية في الخلوة وغيرها .

إذا خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب

فلتكن متقياً لله عز وجل في الخلوة ، وأيضاً في الجلوة وفي الظهور ؛ تكون دائماً متقياً لله عز وجل ، في بلدك وفي غير بلدك ، فأحياناً الإنسان إذا كان في غير بلده قد تنقص عنده التقوى وتضعف ويقل عنده أيضاً جوانب من الأدب ؛ ولهذا يقولون : يا غريب كن أديب ؛ لأن الغريب في البلد يكون ما أحد يعرفه ؛ ولهذا يدع بعض الآداب بحجة أنه لا أحد يعرفه .

فالمسلم مطلوب منه أن يكون على التقوى أينما كان ، والنبي عليه الصلاة والسلام كما في طرق بعض هذا الحديث أوصى معاذاً عندما بعثه إلى اليمن وأبا ذر ؛ قال " اتق الله حيثما كنت " في المدينة أو في اليمن أو في أي بلد تذهب إليه ، تكون معك تقوى الله سبحانه وتعالى ، في سفرك براً وبحراً وفي الطائرة ؛ أينما تكون؛ تكون متقياً لله عز وجل . وتعجب عجباً عظيماً من أناس يكرمهم الله عز وجل بالانتقال من بلد إلى بلد بالطائرات ويكون بينه وبين الأرض مفاز ، والله عز وجل هو الذي أكرمه بهذه النعمة بالحمل بهذه الطائرة ؛ ثم تراه في الطائرة يعصي الله سبحانه وتعالى ولا يبالي ، ويرتكب في الطائرة ولا يبالي ، أو يرتكبها في البحر وقد أكرمه الله عز وجل بهذه الوسيلة من النقل .

فالواجب على المسلم أن يتقي الله في سفره وحله وترحاله ، جواً أو براً أو بحراً ، في بلده أو في أي بلد يكون ؛ اتق الله حيثما تكون لأنك أينما تكون فربُّ العالمين يراك ولا تخفى عليه منك خافية ، يعلم السر وأخفى ..

والعبد إذا استحضر تقوى الله سبحانه وتعالى أينما كان تحقق له بإذن الله البعد عن الذنوب وتجنب الآثام ، إذا حضرت التقوى في قلبه بعدت المعصية باذن الله ..

ولعلنا نذكر في هذا المقام قصة المرأة التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم خبرها مع الثلاثة الذي أووا إلى الغار وكان أحد هؤلاء الثلاثة صاحب مال ، وكانت له ابنة عم جميلة ، وكانت تأتيه تطلب منه حاجتها لفقرها ؛ فمنع من إعطائها إلا أن تمكنه من نفسها ؛ فأبت ، ولما اشتدت حاجتها واشتدت ضرورتها أتت إليه ومكنته من نفسها ؛ حتى إذا جلس بين شعبها الأربع . كما قال عليه الصلاة والسلام . ، هيات له تماماً ؛ فقالت له وهي في هذه الحال : إتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ؛ فقام الرجل .

فتقوى الله عز وجل إذا حضرت فعلاً إلى القلب مهما كان الدافع والباعث فالتقوى بإذن الله عز وجل ينجو بها العبد من كل إثم وخطيئة ؛ ولهذا مطلوب من المسلم أن يكون دائماً مستصحباً لتقوى الله أينما كان ، ولا يزال العبد بخير ما دام محافظاً على تقوى الله عز وجل في كل مكان، ولهذا هذه وصية عظيمة تُبنى عليها أصول المعاملة مع الله وهي تقوى الله - هذا الأصل الأول.

الأصل الثاني ؛ قال : " وأتبع السيئة الحسنة تمحها " : هذا في معاملتك مع نفسك في هذه الحياة بتربيتها على الفضائل وتأديبها على الكمالات وأخذها وزمها بزمم الخير والفضيلة أن تكون بهذه الصفة ، أنت من بني آدم ، وبني آدم خطاء ، كما قال عليه الصلاة والسلام " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " ، أنت عرضة للخطأ والزلل والهفوة والتقصير ؛ لكن مَرّن نفسك ووطّدها وجاهدها على هذا الأساس الذي بيّنه صلى الله عليه وسلم بقوله " أتبع السيئة الحسنة تمحها " بمعنى أن تُقَبِّل نفسك على الحسنات ، وأن تجاهد نفسك على الإقبال من الطاعات ، وتحاول أن تستكثر منها ماؤمت في هذه الحياة ، وكل ما تهيأت لك فرصة لتقدم حسنة افعليها تفيدك ، وينفعك الله بها نفعاً عظيماً ، وربما كانت الحسنة صغيرة في عينك وتكون هي سبباً في دخولك الجنة ، قد تفعلها ولا تلقي لها بالاً وتكون سبباً لغفران ذنوبك ودخولك الجنة ، ذكر عليه الصلاة والسلام قصة امرأة بغيّ اشتد بها العطش فوجدت بئراً ونزلت وشربت حتى ذهب منها العطش ثم خرجت ورأت كلباً اشتد به العطش وكان يمص الثرى من شدة عطشه ؛ فوقع في قلبها رحمة لهذا الكلب ، ونزلت البئر ، ولم يكن معها إلا خفها ؛ فملئته ماءً وأمسكته بفمها ، وعرضت نفسها للخطر ، وصعدت وسقت الكلب ؛ فغفر الله لها .

فغفران الله سبحانه وتعالى لهذه المرأة راجع لشدة الإخلاص ؛ لأنها قامت بهذا العمل لا تبتغي به إلا وجه الله ، مخلصاً به ؛ ولهذا قليل العمل مع الإخلاص يعظم عند الله سبحانه وتعالى ، هذه المرأة لما قام في قلبها من الصدق والإخلاص لله تبارك وتعالى وهذه الرحمة العظيمة التي قامت في قلبها لهذا الكلب ؛ رحمها الله وغفر لها ، جاء في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مر رجل بغصن شجرة فيه شوك فقال والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم فنحاه فشكر الله عمله فادخله الجنة " ، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا تصدق أحدكم بعدل تمرة بكسب طيب أخذها الله يمينه ورباها له كما يربي أحدكم فلولة أو فسيلة حتى يوم القيامة مثل الجبل " .

لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق ، فأبواب الإحسان كثيرة أمامك ، وممرٌ معنا القاعدة في الإحسان في كل شيء ؛ فاجتهد أن تكون محسناً ، حريصاً على الحسنات ، مجتهداً في فعل الطاعات والقربات ، جاداً في النوافل والمستحبات ، مجتهداً في الإحسان إلى الناس ؛ فهذه الحسنات ينفعك الله سبحانه وتعالى بها نفعاً عظيماً ؛ لأنك بشر وتخطئ وعرضة للخطأ وربما تقع في ذنوب وزلات ؛ فأكثر من الحسنات .

قال " وأتبع السيئة الحسنة تمحها " : وهذا نضير قول الله سبحانه وتعالى {إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين} ، فالحسنة تُذهب السيئة ، والسيئة لا تخلص إلا أن تكون كبيرة من الكبائر أو تكون دون ذلك ؛ فإن كانت كبيرة فلا بد في تكفيرها من حسنة التوبة ، والتوبة حسنة عظيمة تحب ما قبلها ، ومن تاب تاب الله عليه ، والتوبة تخدم ما كان قبلها ، من تاب صادقاً من أي ذنب تاب الله عليه وغفر له ذنبه .

فالكبائر لا بد فيها من توبة قال تعالى { إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم } ، قال عليه الصلاة والسلام " الصلوات الخمس ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما ما اجتنبت الكبائر " ؛ الصلوات الخمس هي أفضل الحسنات بعد التوحيد ، والصيام ركن من أركان الإسلام ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام " ما اجتنبت الكبائر " ،

فالكبيرة تكفرها حسنة التوبة ، أتبع السيئة بالحسنة تمحها إن كان الذي وقع فيها من السيئات كبيرة فليتب إلى الله عز وجل ، وتوبته هذه حسنة عظيمة ماحية لذنبه ، وإن كانت الذنوب من الصغائر ومن اللمم ؛ فهذه تكفرها الصلوات المكتوبة ويكفرها صيام رمضان . من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، الوضوء يحط الخطايا ، الصلوات .. ذكر الله .. أنواع العبادات .. كل ذلك يحط الخطايا ؛ فيجتهد الإنسان بأن يكثر من الحسنات بأنواعها ، وكل ما تنهيا لك فرصة ابذلها ينفكك الله سبحانه وتعالى بها هذا معنى قوله " أتبع السيئة الحسنة تمحها " .

ثم الأمر الثالث والأصل الثالث ؛ قال : " وخالق الناس بخلق حسن " ؛ فوجه عليه الصلاة والسلام وأرشد إلى معاملة الناس بالأخلاق الحسنة ، والخلق الحسن هو الخلق الذي كان عليه سيد ولد عليه الصلاة والسلام ؛ قال تعالى {وإنك لعلی خلق عظیم} ؛ فالخلق الحسن هو خلقه صلوات الله وسلامه عليه ، والأدب الكامل هو أدبه ؛ ولهذا إذا أراد الإنسان أن يعرف كوامل الآداب وجوامع الأخلاق وحسن المعاملات فلينظر إلى هديه وسيرته وسنته صلوات الله وسلامه عليه ؛ فأدبه أكمل الأدب وخلقته أكمل الخلق في كل أبواب المعاملات برمتها ، وإنك لتعجب من بعض المسلمين إذا أراد أن يتحدث عن الأخلاق والآداب اتجه نحو الغرب الكافر ينقل ؛ قال العالم الفلاني كذا ، وقال البروفيسور الفلاني كذا .. وكأنه ليس بين يديه كتابٌ يتلى ، كتاب الله تعالى مشتمل على أكمل الآداب وأعظمها ، وكأنه ليس له قدوة صلوات الله وسلامه عليه بأتم الآداب وأكملها حتى إن

بعض المنتسبين إلى لإسلام يكتب في الآداب ولا ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا شيئاً لمماً يسيراً جداً ، وأكثر نقله عن الغرب ؛ فهذه من أعجب العجائب وأغرب الأمور فالأدب أدبه والخلق خلقه صلى الله عليه وسلم ولما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قالت " كان خلقه القرآن".

والمسلم مطلوب منه أن يخالق الناس بخلق حسن . الناس لم يخص . ؛ وهذا فيه أن التعامل بالخلق الحسن مطلوب مع الأبوين ، مع القرابة ، مع الأهل ، مع الأولاد ، مع الجيران ، مع عموم المسلمين ، أيضاً مع الكفار ؛ قد قال الله جل وعلا { لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين } ، فذكر جل وعلا ذلك فيما يتعلق بالكافر ، والنبي عليه الصلاة والسلام عامل الكفار معاملة حسنة كانت سبباً لهداية كثير منهم ودخولهم في هذا الدين ، وكان يأتي الرجل وليس على وجه الأرض أبغض إليه من الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فما أن يرى خلقه الكريم وأدبه الرفيع إلا ويتحول من ساعته وليس على وجه الأرض أحب إليه منه عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا معنى قوله { فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك } ، فالخلق الحسن مطلوب من المسلم أن يبذله ، وأن يجتهد ما استطاع في الإحسان إلى الناس ، وأحق الناس بالخلق الحسن والأدب الكريم الأبوان ؛ ولهذا من جميل صنيع الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتابه الأدب المفرد أول ما بدأ في باب بر الوالدين ؛ وهذه لفظة جميلة جداً كأنه يقول للقارئ : إقرأ الآداب الموجودة في الكتاب كلها وانتبه فإن أحق الناس به وأولاهم بها الأبوان ، وأول ما أورد قول النبي عليه الصلاة والسلام " من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أبوك " . وتجد بعض الناس ربما يحسن أن يتلطف من الزملاء لكن إذا جلس مع أمه لا يحسن أن يتأدب أو أن يعاملها بالأخلاق الفاضلة .

قال وخالق الناس بخلق حسن : وهذا أصل في هذا الباب ، وكل من الناس يُعامل بما يقتضيه المقام ، فالأدب مطلوب مع الجميع ، لكن الأدب مع الأبوين نوع ، الأدب مع الجيران نوع ، الأدب في البيع والشراء نوع ، الأدب في التعلم والتعليم نوع ، وهكذا ؛ ولهذا باب الآداب والأخلاق بابٌ واسع ورحب ورفيع ومن جمال هذه الشريعة وحسنها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، وجاء عنه في هذا المعنى أحاديث كثيرة جداً تدل على مكانة الخلق وعظيم ثوابه ، بل سُئل عليه الصلاة والسلام عن أعظم ما يدخل به الناس الجنة فقال " تقوى الله وحسن الخلق " ، والحديث - حديث معاذ وأبي ذر - جمع الخصلتين .

وحسن الخلق المطلوب من المسلم ضابطه : أن تأتي للناس الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك وأن تعاملهم بحسب ما تحب أن يعاملوك به ؛ وهذا افترضه في كل باب ؛ فمثلاً : إن أردت أن تعامل أمك بالخلق الحسن وتساءلت بينك وبين نفسك : ما الخلق الحسن الذي ينبغي أن أعامل به الأم ؟ فقدّر في نفسك أنك أنت الأم ، وأنك الذي بذلت كذا وكذا ، واذكر أنواع الإحسان التي حصلت منها لك ؛ ماذا تريد أن يعاملك ابنك ؟ قدّر ذلك بنفسك ؛ فالذي تريده لنفسك في هذا المقام ابذله لوالدتك ؛ أن تأتي للناس الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك..

هكذا أيضاً التعامل مع الجيران .. مع المعلمين .. مع الإخوان .. مع الأصدقاء .. إلى آخره ؛ فالخلق الحسن في كل باب أن تأتي للشيء الذي تُحب أن يؤتى إليك ، وهذا أحسن ضابط في هذا الباب ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام " من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الشيء الذي يحب أن يؤتى إليه " ، وهذا نصير قوله عليه الصلاة والسلام لما سُئل عن أعظم ما يدخل به الإنسان الجنة قال " تقوى الله وحسن الخلق " ، وينبغي على العبد في هذا الباب وفي كل باب من أبواب الدين أن يطلب العون من الله ؛ فالتوفيق بيده والهداية بيده سبحانه وتعالى ؛ ولهذا جاءت أدعية عن النبي عليه الصلاة والسلام يحسن بالمسلم أن يعتني بها ؛ مثل قوله صلى الله عليه وسلم " اللهم كما حسنت خلقي فحسّن خلقي " ، وهو ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير تقييده بالنظر في المرأة ، كذلك قوله عليه الصلاة والسلام " اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء " ، كذلك قوله عليه الصلاة والسلام " اللهم اهْدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت " ، أحياناً تقرأ في الكتب وبمر عليك أخلاق جميلة وبينك وبين نفسك تقول ما أجمل هذه الأخلاق وأحسنها .. ؛ ثم تجد نفسك بعد ذلك لم تلتزم بها ؛ ولهذا المطلوب من الإنسان في هذا الباب أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله ؛ فإذا سمعت باب من أبواب الخير فاحرص على أن تكون من أهله وجاهد نفسك على فعله واطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعينك على ذلك .

قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله :

[الأول : هذا الحديث اشتمل بجملة الثلاث على ما هو مطلوب من المسلم لربه ولنفسه
ولغيره] .

الشرح..

أي أنه اشتمل على أصول ثلاثة في التعامل ؛ ما يجب عليه لنفسه ولربه ولغيره ؛ لربه في
الجملة الأولى ، ولنفسه في الثانية ، ولغيره في الجملة الثالثة .

[ثانياً قوله : " اتق الله حيثما كنت " : أصل التقوى في اللغة أن يجعل بينه وبين الذي يخافه
وقاية تقيه منه مثل اتخاذ النعال والخفاف للوقاية لما يكون في الأرض من ضرر ، وكاتخاذ
البيوت والخيام لاتقاء حرارة الشمس ونحو ذلك .

والتقوى في الشرع أن يجعل الإنسان بينه وبين غضب الله وقاية تقيه منه وذلك بفعل
المأمورات وترك المنهيات وتصديق الأخبار وعبادة الله وفقاً للشرع لا بالبدع والمحدثات .
وتقوى الله مطلوبة في جميع الأحوال والأماكن والأزمنة ، فيتقوى الله في السر والعلن، وبروزه
للناس واستتاره عنهم كما جاء في الحديث " إتق الله حيثما كنت " [الشرح..

قوله " اتق الله حيثما كنت " : هذا فيه الأمر بتقوى الله عز وجل أينما كان العبد وفي أي محل
حل ، وفي أي منطقة نزل ، في سره وعلنه ، في غيبه وشهادته ، في بروزه واستتاره ، أينما
كان يكون متقياً لله جل وعلا ، وتقوى الله هي أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من عقابه
وسخطه وقاية تقيه ؛ وذلك بفعل المأمور وترك المحذور ، ومن تقوى الله تصديق أخباره جل
وعلا ، وعبادته سبحانه وتعالى بما شرع لا بالأهواء والبدع ، والتقرب إلى الله عز وجل بالبدع
المحدثات ليس من تقوى الله ؛ ولهذا يُردُّ على المتقرب إلى الله بالبدع عمله ، وقد مر حديث
عائشة " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ؛ أي مردود على صاحبه غير مقبول منه ،
فمن التقوى أن يلزم المرء نفسه بالشرعية ، وبما جاء عنه صلى الله عليه وسلم وأن يكون حذراً من البدع
والأهواء .

[قوله صلى الله عليه وسلم " وأتبع السيئة الحسنة تمحها " : عندما يفعل المرء سيئة فإنه يتوب منها والتوبة حسنة ، وهي تحب ما قبلها من الكبائر والصغائر ، ويكون أيضاً بفعل الحسنات فإنه تمح الصغائر ، وأما الكبائر فلا يمحوها إلا التوبة منها] .

الشرح..

قوله " وأتبع السيئة الحسنة تمحها " : يدخل في عموم ذلك حسنة التوبة ، وأن العبد إذا وقع في كبيرة من الكبائر عليه أن يتوب إلى الله عز وجل منها وتوبته منها إن كانت نصوحاً فهي حسنة ماحية لذنبه وسببٌ للغفران والنجاة من عذاب الله تبارك وتعالى ، والعبد مطلوب منه أن يتوب من الذنوب كلها ؛ وفي الدعاء " اللهم اغفر لي ذنبي كله ذقّه وجله ، أوله وآخره ، سره وعلمه " ، وفي الدعاء الآخر " اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت " ، فالمسلم المطلوب منه أن يستغفر الله جل وعلا من ذنوبه كلها وأن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى من الذنوب ، والتوبة حسنة ماحية ، وأما الاستغفار فهو دعاء ، وطلب للمغفرة ، ولا يكفي في الكبيرة مجرد الاستغفار ؛ فلا بد من التوبة النصوح {توبوا إلى الله توبةً نصوحاً}.

[رابعاً: قوله صلى الله عليه وسلم "وخالق الناس بخلق حسن" فإنه مطلوب من الإنسان أن يعامل الناس جميعاً معاملة حسنة ، فيعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به لقوله صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" ، وقوله صلى الله عليه وسلم " فمن أن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه " ، فقد وصف الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه على خلق عظيم ، وجاء عن عائشة رضي الله عنها أن خلقه القرآن . رواه مسلم ؛ أي أنه يقوم بتطبيق ما فيه ، وجاء في السنة أحاديث كثيرة تدل على فضل حسن الخلق ، وتحث على التخلق بالأخلاق الحسنة ، وتحذر من الأخلاق السيئة] .

الشرح..

هذه الجملة الثالثة من الحديث وهي قوله عليه الصلاة والسلام " وخالق الناس بخلق حسن " ؛ وفيها بيان أن المسلم مطلوب منه ذلك ، وأن يكون تعامله مع الناس بالأخلاق الفاضلة والآداب الطيبة الكاملة التي جاءت في كتاب الله وثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلقه عليه الصلاة والسلام هو

أكمل الخلق وأدبه هو أكمل الأدب ، ومخالقة الناس بالخلق الحسن بمعرفة ما كان صلوات الله وسلامه عليه . ن
أخلاق وآداب ، وبمجاهدة النفس على التحلي بها والتأدب بالآداب التي كان عليها صلوات الله وسلامه

عليه .

وقول النبي عليه الصلاة والسلام " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " والحديث الآخر " وليأت إلى
الناس الذي يحب أن يؤتى إليه " ؛ هذان الحديثان يضبطان للمسلم حقيقة الخلق الحسن ، وأن
حقيقة الخلق الحسن تكون بأمرين :

الأمر الأول: سلامة الصدر . لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه - .
الأمر الثاني : بحسن المعاملة - أن تأتي للناس الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك - .
فهذه حقيقة الخلق الحسن في التعامل مع الناس .

] خامساً: مما يستفاد من الحديث :

الأول : كمال نصح الرسول صلى الله عليه وسلم لأئمة ومن ذلك ما اشتمل عليه هذا الحديث من
هذه الوصايا الثلاث العظيمة الجامعة .
الثاني : الأمر بتقوى الله في جميع الأحوال والأمكنة والأزمان .
الثالث : الحث على إتباع السيئات بالحسنات .
الرابع : أن الحسنات تمحو السيئات .
الخامس : الحث على مخالقة الناس بالأخلاق الحسنة .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آل وصحبه

..*